الكتاب الثالث والعشرون

كتاب أزمة الإرادة والوجدان المسلم
البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة

ا.د. عبد الحميد أبو سليمان
١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م. ط٣، دمشق، دار الفكر.
مؤسسة تنمية الطفولة. ٣٣٤ صفحة.
تحليل وعرض د. عبد الناصر العساسي

السيرة الذاتية للمؤلف:

من أبناء مكة المكرمة، ولد بها عام ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م. تحصل في مكة على تعليمه الابتدائي والثانوي، وتخرج في مدرسة تحضير البعثات سنة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م، وحصل على بكالوريوس التجارة في قسم العلوم السياسية عام ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م، من كلية التجارة بجامعة القاهرة. حصل على درجة الماجستير في العلوم السياسية من كلية التجارة بجامعة القاهرة سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦٣م، وحصل على درجة الدكتوراة في العلاقات الدولية من جامعة بنسلفانيا بفيلادلفيا في الولايات المتحدة عام (١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م) وعمل أمينًا لاجتماعات المجلس الأعلى للتخطيط بالمملكة العربية السعودية، ثم عضوًا في هيئة التدريس بكلية العلوم الإدارية (كلية التجارة سابقًا) في جامعة الملك سعود بالرياض (جامعة الرياض سابقًا)، ورئيسًا لقسم العلوم السياسية فيها، من مؤسسي اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، والاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية، ورئيس مجلس الإدارة الأسبق لمدارس منارات الرياض، الأمين العام المؤسس للأمانة العامة للندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض بالمملكة العربية

السعودية، الرئيس الأول للمعهد العالمي للفكر الإسلامي ومن مؤسسيه، والمدير العام الأسبق للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، والرئيس المؤسس لمؤسسة تنمية الطفل، والمؤسس والرئيس الأسبق لجمعية علماء الاجتماعيات المسلمين بالولايات المتحدة الأمريكية وكندا، ومؤسس ورئيس تحرير سابق للمجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية، ومؤسس ومدير الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا ١٩٨٨م -١٩٩٩م، ورئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٩٩م/ ١٤١٩هـ، وصاحب ومدير عام مكتب دار منار الرائد للاستشارات التربوية والتعليمية (الرياض) ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، وله عدد من الكتب والأبحاث والأوراق العلمية والفكرية التي تهتم - من المنظور الإسلامي - بالتغيير وبالجوانب الإبداعية الإصلاحية للأمة في العقيدة والرؤية الحضارية الإسلامية، وفي الفكر والمنهج والثقافة، وفي التربية والوجدان المسلم.

من مؤلفاته «نظرية الإسلام الاقتصادية: الفلسفة والوسائل المعاصرة» (١٩٦٠م)، والسياسة البريطانية في عدن والمحميات ما بين عام١٧٩٩وعام١٩٦١م (رسالة ماجستير) ١٩٦٣، و«النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية: اتجاهات جديدة للفكر والمنهجية الإسلامية» (١٩٧٣م)، و«أزمة العقل المسلم» (١٩٨٦)م، وبالاشتراك «إسلامية المعرفة: الخطة والإنجازات» (١٩٨٦م) و«العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي بين المبدأ والخيار: رؤية إسلامية» (٢٠٠٢م)، و«قضية ضرب المرأة وسيلة لحل الخلافات الزوجية!» (٢٠٠٣م)، و«أزمة الإرادة والوجدان المسلم» (٢٠٠٤م)، «الإصلاح الإسلامي: الثابت والمتغير، تجربة الجامعة الإسلامية ٢٠٠٤م»، «الإنسان بين شريعتين٢٠٠٥»، «جزيرة البنائين: قصة عقدية تربوية (للصغار والكبار)» «كنوز جزيرة البنائين: قصة عقدية تربوية (للشباب والكبار)» «إشكالية الاستبداد والفساد في الفكر والتاريخ

الإسلامي ٢٠٠٧م» «الرؤية الكونية الحضارية القرآنية ٢٠٠٩ م».

لـه إسهامات هامة في إقامة عدد كبير من المؤتمرات والندوات الفكرية والثقافية العالمية، والمحاضرة فيها، وتقديم الأوراق الفكرية وكتابة أوراق عملها، واقتراح الكثير من توصياتها.

المؤلف وعصره:

يتميز مؤلفنا بميزتين، الأولى تتمثل في البيئة الجغرافية التي نشأ فيها؛ أرض مكة حيث حرم الله ويسكن هذه المنطقة أهل الله وخاصته، وهي أحب بلاد الله لرسول الله، وجعلها قبلة المسلمين عبر التاريخ، وإليها تنتهي فضائل الصفا، ويكفيها فخرًا أنها لم يحتلها غازٍ قط، والثانية تتمثل في الفترة الزمنية التي عاشها، حيث فترة انتقال شعوب العالم الإسلامي من التبعية العسكرية للدول الاستعمارية إلى الاستقلال الوطني، ولما أدرك مؤلفنا؛ منذ ستينات القرن العشرين حيث أكمل تعليمه الجامعي بمصر وكان التيار الاشتراكي هو المهيمن على جميع مجالات الحياة؛ أن هذا الاستقلال هو استقلال شكلي ولم يُحْدِث استقلالًا في جوهر الحياة الإسلامية، سعى جاهدًا لبيان أن الاستقلال الحقيقي لا يمكن أن يتم إلا إذا انطلق من مبادئ الإسلام، ولذلك قدم أطروحته للماجستير حول النظرية السياسية في الإسلام، لكلية التجارة، جامعة القاهرة، معقل العلمانيين، وأكمل دراسته في هذا التوجه بالولايات المتحدة الأمريكية.

وإيمانا منه بضرورة ملازمة الفكر للتطبيق، فقد شارك في تأسيس العديد من الاتحادات والجمعيات ذات الصبغة الإسلامية في البيئة الغربية، وتمكن من خلال أطروحاته الفكرية أن يحرك التوجه الإسلامي الذي كان على وشك أن يحتضر بين تشوهات التراث وانحرافات العلمانيين، وبالتالي استفاد من لقائه بمجموعة من علماء الأمة المخلصين وترجموا أفكارهم في مؤسسة المعهد العالمي للفكر الإسلامي،

والذي حمل مع غيره من المؤسسات العلمية فكرة إسلامية المعرفة، ولم يبق ساكنًا ولكنه ظل ديناميكيًا في نقل أفكار مدرسة إسلامية المعرفة إلى مؤسسة عالمية علمية عملاقة وهي الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، وجعل منها منارة إسلامية تعمل على توفير الكوادر المؤهلة أكاديميًا وإسلاميًا للعمل في المجالات المختلفة، ورغم ما واجه مؤلفنا من صعوبات؛ شأنه شأن مؤسسي مدرسة إسلامية المعرفية؛ فإنه يعمل جاهدًا على إيجاد وسائل بديلة تمكنه من تحقيق رسالة إسلامية المعرفة.

المعالجة التحليلية للكتاب:

يتكون الكتاب من مقدمة وستة فصول،: الفصل الأول جاء تحت عنوان «القضية: الإرادة» والفصل الثاني جاء تحت عنوان «تشخيص الداء» والفصل الثالث جاء تحت عنوان «الطفل: قاعدة الانطلاق» والفصل الرابع جاء تحت عنوان «الحل الأساسي: بناء الطفولة» والفصل الخامس جاء تحت عنوان «الأسرة المسلمة منبع الوجدان» والفصل السادس جاء تحت عنوان «خطة العمل»

بالنسبة للمقدمة، فقد جاء فيها أن هذا الكتاب هو محاولة لفهم الأسباب التي حالت دون نجاح المشروع الحضاري الإسلامي، ذلك لأن البعد المهم في هذه الجهود وهو الطفل هو بعد مغيب، رغم أن الطفل يمثل البذرة التي تحدد نوع الشجرة وطعم الثمرة، ولهذا فإن هذا الكتاب هو محاولة لفهم غياب الجانب النفسي الوجداني في الخطاب التربوي الإسلامي الموجهة للطفل، وهذه المحاولة ستحاول توضيح الأدوات المنهجية والثقافية اللازمة للإصلاح التربوي؛ مع توجيه الانتباه إلى أهمية الدور الفطري المحوري للأسرة، ومن هنا فإن المطلوب يتمثل في التعامل الجاد مع أزمة العقل والمنهج وأزمة الفكر والثقافة وأزمة الوجدان والتربية، ويفتح هذا الكتاب أيضا الباب أمام حوار جاد وبناء يتسم بروح الإخلاص والشجاعة بغرض النظر في أعماق كيان الأمة الفكري والثقافي والتربوي.

بالنسبة للفصل الأول الذي هو تحت عنوان «القضية: الإرادة» فقد ذكر فيه أن ظاهرة إسقاط الطفولة من مشروع الأمة الإصلاحي ترجع إلى أمرين؛ الأول يتمثل في الخلل الذي أصاب منهج الفكر الإسلامي، حيث غيب فيه الدور المعرفي الشمولي التحليلي لمعرفة السنن الإلهية، مما أدى إلى ضعف الوعي بأهمية الدراسات العلمية النظرية والتجريبية للتكوين النفسي، والأمر الثاني يتمثل في غياب الخطاب النفسي العلمي التربوي السليم، الذي له دور فعال في بناء نفسية الطفل المسلم لدفع البعد الوجداني وتكوين الإرادة الإيجابية، وفيما يتعلق بدواعي هذا البحث، فيتمثل في الإحساس بأولوية الحاجة إلى إعادة بناء النفسية المسلمة واستعادة قدراتها وطاقاتها الأخلاقية الحضارية الإبداعية، وهذا يتطلب فهم القرآن كما أنزل، وإدراك سيرته التاريخية، ومعرفة العوامل التي سيرت الأمة وفكرها وثقافتها، أما فيما يتعلق بالمنهج المستخدم في هذا البحث فهو منهج علمي باعتباره أداة بحث في السنن الإلهية في الكون والكائنات، وهو منهج إسلامي في غاياته الكلية والأخلاقية، وهو منهج شمولي تحليلي منضبط، لذلك فهو يتطلب أن يتحلى الباحث بالشجاعة الأدبية والنظرة الناقدة.

إن المعالجة الشمولية تُمكِّن من معرفة العوامل المؤثرة في أي قضية أو أي مجال، ومعرفة تداخلاتها الرأسية والأفقية، مما يساعد على ترتيب الأولويات في التعامل مع هذه العوامل، ويمكن أيضًا من التفريق بين الأسباب الرئيسية والأسباب الفرعية والمضاعفات المترتبة عليها، فمثلًا التصدي للعولمة لا يجب أن يشغلنا عن التصدي لأسباب القابلية للاستعمار، فرغم تعدد محاولات الإصلاح خلال القرون الثلاثة الماضية، إلا أنها لم تنجح في إدراك إشكال الأمة وأسباب أمراضها وضعف علاجاتها، فالبحث العلمي المنضبط سوف يؤدي إلى تكامل الحلول ودعم الجهود المبذولة لمواجهة الأزمة وتخطي العقبات لتحقيق المطلوب وإصلاح الخلل، وهنا

تبرز أهمية إدراك منظومة الذات العقدية والفكرية، وتبرز أيضا أهمية إدراك التلاقح الفكري في الماضي والحاضر؛ ففي الماضي، نتيجة لسرعة انتشار الإسلام دخلت الأمم الأخرى فيه بكل معتقداتها وفلسفاتها ولم تمر بعملية كافية من التوجيه والتنقية، أما في الحاضر؛ فنتيجة لهيمنة الحضارة الغربية المادية، استبدل المسلمون منطلقاتهم بمنطلقات هذه الحضارة بحيث أصبحت الحياة الدنيا والمادة غاية في ذاتها، وهنا تبرز أهمية الانسجام بين الضمير والوجدان الإسلامي مع الفكر والغايات والنظام الإسلامي لتفجير طاقات الأمة الإيمانية والعمرانية، ولكن لغياب دراسة العلاقة بين المعرفي والوجداني والوقوع في أسر المنهج اللغوي النصي، فقد أدى هذا إلى غياب البعد العلمي التربوي في دراسات الطفولة التي تمثل منطلقًا أساسيًا في تحقيق التغيير الاجتماعي والذي بدوره يؤدي إلى إحداث التغيير النفسي الجمعي الضروري لاستعادة الرؤية وتحريك الطاقة الوجدانية ومواجهة التحديات.

إن جذور الأزمة التاريخية تظهر من خلال العلاقة بين طاقة الدفع الإيماني الحضاري (وهي: قيم الرسالة، رؤية الرسالة، روح الرسالة) وتراكمات العمران والبناء والصنائع المادية، فكلما زادت تراكمات البناء والعمران كلما ضعفت طاقة الدفع الإيماني الحضاري حتى ينهار البناء وتنهار المؤسسات، وهذا ما نلاحظه في سنن التاريخ، فكلما كان الدفع والتغيير الإسلامي للروح والعقل والوجدان عظيمًا كان الأثر العمراني محدودًا، ومع توسع الملك والعمران فإن ذلك يصاحبه الكثير من الممارسات القيصرية والكسروية من الظلم والجور والاستبداد والخرافة والضلالات، وهذا يؤدي إلى غبش الرؤية وتلوث الثقافة، فيتخرب العمران وينهار البناء.

لقد بدأ ضعف الطاقة الإيمانية الأخلاقية عندما وهن جيش الأصحاب في جيش الخلافة وحل محله جيل الأعراب؛ مما حول الخلافة إلى ملك عضوض بني على قواعد الاستلاب وقهر العصبيات القبلية، وازداد الأمر سوءًا نتيجة لما لحق

بالأمة من الشعوبيات والفلسفات والخرافات، وقد كان هذا نتيجة لقصور الجهود التربوية عن إعادة تربية أبناء القبائل البدوية الذين شكلوا جيش الفتح، وقد أدى هذا إلى إحداث شرخ لم يلتئم في جسم الأمة حتى الآن، وهذا الشرخ يتمثل في انهيار نظام الخلافة الراشدة وما حمله ذلك من آثار عقدية وسياسية واجتماعية واقتصادية أصابت روح الإسلام ورؤيته، فبعد مرور مائة عام على الرسالة تم تهميش دور رجال مدرسة الرسالة، وتحولوا تدريجيًا إلى فئة نظرية مدرسية منعزلة معزولة في المساجد والزوايا والمدارس، فضعفت صلتهم بواقع المجتمع وتغيراته وقدرتهم على التأثير في مسار سياساته وممارسات تجديد مؤسساته، وهنا تحولت مدارس الخبرة والعمل إلى مدارس الرأي ثم تحولت مدارس الرأي إلى مدارس النص وانتهت مدارس النص إلى مدارس الجمود والتقليد، وقد دفع هذا التطور الصفوة العلمية المدرسية إلى تبني البديل الفلسفي الوافد بدون منهج شمولي سليم يدرك خصائص الأمة ومكونات رؤيتها وعقليتها ونفسيتها العقدية والحضارية، ولقد انتهى هذا الأمر بالأمة إلى انهيار المؤسسات وتسلط الصفوات، وأصبح المسلم فردًا يتناوشه إرهاب الاستبداد السياسي وخطاب الترهيب الديني، ولم تدرك الصفوة الفكرية أن الإصلاح يبدأ أولًا من الداخل بالتربية وليس بالمناجزة والصراع والعنف.

أما الفصل الثاني فقد جاء تحت عنوان «تشخيص الداء» وذكر فيه أن معرفة ما تم على وجه التحديد من انحرافات وتغيرات تُمكِّن من معرفة وجوه القصور التي أسهمت في تقويض جهود الإصلاح عن تحقيق أهدافها، وأهم أوجه ذلك التشوهات والانحرافات في فكر الأمة وثقافتها، وأولها تشوه الرؤية الكلية بحيث لم تعد رؤية توحيدية شمولية إيجابية، وهذه الرؤية الكونية الإسلامية تتضمن ثلاث قضايا أساسية؛ أولها الغيب الذي يتمثل في الإيمان بالله الخالق وحده لا شريك له، وثانيها الحياة وتتمثل في حسن المسئولية وقصد الخير والعدل والسعي بالإصلاح

والإعمار، وثالثها الآخرة والمآل حيث تتمثل في مواجهة المصير وفقًا للجزاء العادل. لكن بفضل الفكر المعزول المنعزل أصاب هذه الرؤية تشوهات أدت إلى ذبول روح الإسلام ومكنت لفعل عوامل التخلف في كيانها، فاستسلمت الأمة للسلبية والجمود والتقليد والمحاكاة، ويتضح هذا من خلال ما تقدمه كتب الفقه والكلام حيث تقدم رؤية فردية وتتغافل الرؤية الجماعية والتي تتعلق بالشئون الشخصية وتبتعد كل البعد عن الشئون العامة، فلا مجال للمشاركة السياسية والعلاقة الجماعية وموازين الإخاء والتكامل والتضامن والشورى في تسيير الحياة العامة للأمة، فتحولت الرؤية الكونية القرآنية إلى مجرد ذكر وشعائر عليها مدار الثواب والعقاب، أما الشئون العامة فلا يتعلق بها ثواب ولا عقاب، وهذا في ذاته مخالف للرؤية القرآنية التي تعتبر حياة الفرد والأمة كلها عبادة.

بالنسبة للتشوه الثاني فيتعلق بالتشوه المنهجي والذي حول الفكر الإسلامي إلى فكر نظري جعل المعرفة عملية استظهار وتقليد ومحاكاة يغيب عنها بعدي الزمان والمكان وسنن الطبائع في الخلائق والكائنات، فضعفت أدوات الاجتهاد ووسائله الضرورية اللازمة لتوليد المعارف الإنسانية، وما يترتب عليها من إبقاء منطلقات العلوم الاجتماعية على هيئة عناوين ومبادئ مجردة، وقد أدى هذا التشوه المنهجي أيضًا إلى جعل المعرفة معرفة نصية حرفية جزئية فابتعدت العقيدة عن الحياة وانفصل علم الفقه عن علم العقائد وأعطيت النصوص قداسة لتغطي عجز المعرفة واتخذوا حشو الرءوس وسيلة لقفل هذه المعارف.

بالنسبة للتشوه الثالث فهو تشوه المفاهيم، وأول هذه التشوهات تشوه مفهوم العبودية والإنسان السوي الذي هو على الفطرة السوية وهو مُعبد لله وليس مستعبدًا وهو بطاعته للطواغيت والأهواء يكون مستعبدًا، وهو الخطاب الذي استخدمه القرآن في خطابه للكافر المكابر الجاحد المحارب لأن الاستعداد يكون

مشحونًا بكل ألوان المهانة والتهديد والوعيد وقهر الضمير ويكون أداة تحقير وسحق للكرامة وإلجام للعقل وحاجز بين المخلوق والخالق، بينما يبقى مفهوم العبودية مصدرًا للاعتزاز ومبعثًا لثقة المسلم بنفسه، وهنا لابد من التركيز على مفهوم التوحيد باعتباره مفهومًا مركزيًا له دلالاته الحياتية تلتف حوله مفاهيم الإرادة والعبودية والاستخلاف والتزكية والعمران، وهو يحتم التزام مبادئ العدل والشورى والمساواة.

بالنسبة للتشوه الرابع فهو تشوه الخطاب حيث تحول الخطاب من خطاب فكر ونظر وتدبر واقتناع وقدرة على الاجتهاد والتجديد واحتواء متغيرات الزمان والمكان ومستجداتها إلى خطاب إرهاب وقهر وقمع، اعتمادًا على أكداس من روايات آحاد وروايات الغفلة والمدلسين والحكواتية وأصحاب الأغراض، وعلى سوء التأويل لنصوص خطاب موجه للجاحدين والكفار والمستكبرين والمحاربين، ليصوب إلى عامة الأمة البائسة اليائسة الغارقة في الجهل والمرض والفقر، والمرزوءة بإرهاب الصفوات السياسية المستبدة المبددة لمطالب العامة، ثم جاء الخطاب الديني ليضيف ضعفًا في سحق روح العامة، ومن أمثلة خطاب الإرهاب الفكري تحدث أحد المتكلمين في مؤتمر عالمي إسلامي عن موضوع الموت، وتركيز أحد خطباء الجمعة على اللحية وإخراج حالقها من الملة.

فيما يتعلق بالتشوه الخامس فهو عقلية الشعوذة والخرافة لدى عامة الأمة حيث تشوهت العقلية السننية وتم تدميرها لدى أبناء الأمة، فنتج عن ذلك التخلف العلمي والتقني، فطلب السنن الكونية شرط لازم ولكنه غير كاف ما لم يكن مقرونًا بالسعي والجهاد ثم الأخذ بالأسباب وبعد ذلك طلب العون من الله، فالعمل وطلب الأسباب على أساس من سنن الطبائع شرط ضروري للحصول على الثمر مع عون الله وتوفيقه.

لقد كان للتشوهات السابقة أثرها على العقل المسلم حيث وفرت تربة خصبة لفكر الخرافة والشعوذة وتمثلت الكارثة هنا في توظيف الدين والقداسة لخدمة الخرافة والشعوذة وذلك من خلال ترويج الأساطير والإسرائيليات ومن خلال سوء استغلال بضع إشارات قرآنية وتأويلها في ضوء ما كان من سالف أحوال الإنسانية، وهنا يضع القرآن المعوذتين كنهاية وحاجز لفكر الخرافة والشعوذة، ولقد استغل البعض الدعاء والرقى بالقرآن لفتح باب الخرافة وفتح باب الشعوذة بحيث تحول الدعاء إلى مهنة وحرفة ووسيلة للجاه وجمع المال، وهنا لابد أن يطلب الدعاء ممن يتوسم فيه الصلاح.

إن عملية تصحيح منهج الفكر الغالب في الأمة من الجزئية اللغوية والنصية الحرفية التقليدية يتطلب مواصلة الجهود لتحرير النصوص والمفاهيم والتفاسير وتنقيتها بصورة لا تسمح للأحداث والتطبيقات والملابسات الزمانية والمكانية أن تطغى على المقاصد والثوابت والكليات، وهنا لابد أن نعتبر أن ترويج فكر الخرافة والشعوذة وكتبها جريمة دينية، فالأمم تتقدم بالعلم والمعرفة وليس بالخرافة والشعوذة، وهنا لا يجب أن يقع مفكرو الأمة وعلمائها في حبائل المنهجيات الجزئية والحرفية وترسيخ العقلية الخرافية في المنزل وذلك بسبب قيام الآباء بتخويف الطفل من الانطلاق بعيدًا عن أعينهم ورعايتهم.

إن العودة للمنهجية الصحيحة تتطلب مزيدًا من الجهد في تحرير المفاهيم الأساسية من خلال إعادة النظر في فهم النصوص وأدبيات التراث ثم عرض هذه المفاهيم من زاوية معطيات هذا العصر ومعارفه وتحدياته ثم إعادة صياغة الخطاب الإسلامي.

فيما يتعلق بالتشوه السادس فهو العرقية «دعوها فإنها منتنة» حيث تتمثل رسالة الإسلام وقيم الإسلام وثقافته في رسالة التوحيد والإخاء والعدل والتراحم، وهي

تتلاحم وتتداخل في دوائر الانتماء البشري من النفس الواحدة إلى الرحم والأهل والدين والإنسانية، لكن العرقية العنصرية تمثل تلوث عقدي ثقافي واجتماعي خطير، فالعصبيات الجاهلية هي صفات حيوانية وفرقة وظلم وهي غير صلة الرحم الإسلامية التي هي رحمة وتواصل وعطاء أما العصبيات العرقية فهي أيضا مظهر للفراغ الروحي والاستكبار الشيطاني.

بالنسبة لآثار الانحرافات الفكرية في بناء الأمة النفسي فقد أدى الصراع بين الصفوة الفكرية والصفوة السياسية إلى تغيرات جذرية في فكر الصفوة وفي طبيعة رؤيتها للمجتمع وإلى صبغ العلاقة بين الثورة السياسية والثورة الفكرية بصبغة العداء والتعارض وتنازع النفوس، وبالتالي سيطر خطاب الإرهاب نتيجة لضعف العامل التربوي الإسلامي في تكوين الأعراب الذين تم تجنيدهم في جيش الفتح فأدى ذلك إلى سقوط دولة الخلافة الراشدة، ومكن ذلك للفكر العرقي القبلي من إقامة الملك العضوض، كما كان لتربص الإمبراطوريات المجاورة لدولة الإسلام بالمسلمين أثره في إهمال دول الإسلام للجانب التربوي وإهمال البعد المعرفي الإنساني في دراسة الطبائع والوقائع والمتغيرات في الزمان والمكان وقد أدى ذلك إلى فقدان الإيجابية وروح التعاون والتضامن والبذل الجماعي.

أما الفصل الثالث فقد جاء تحت عنوان «الطفل: قاعدة الانطلاق» وذكر فيه أنه رغم التشوهات التي أصابت الأمة الإسلامية، إلا أنه كان هناك قدر من روح الإسلام ومبادئه وقيمه سارية بدرجات متفاوتة في جميع أقطار العالم الإسلامي، والدليل على ذلك ظهور محاولات إصلاح عديدة، أهمها محاولة أبي حامد الغزالي الذي صرف همه إلى تصحيح مسار الفكر الإسلامي وتخليصه من تهويمات الفكر الفلسفي الإغريقي الميتافيزيقي، ثم جاء بعده ابن تيمية وابن حزم وابن خلدون، ثم كانت الإصلاحات السياسية والإدارية والعسكرية على يد آل زنك، كما شهد

العصر الحديث حركات إصلاح تمثلت في الحركة الوهابية والسنوسية والمهدية والباديسية وإصلاحات آل عثمان على يد سليم الثالث وعبد الحميد الثاني والأفغانية ومدرسة محمد عبده وحركة كمال أتاتورك العلمانية وحركة حسن البنا وحركة أبي الأعلى المودودي، هذا إلى جانب سلسلة من المفكرين والإصلاحيين مثل الدهلاوي وإقبال وخير الدين التونسي والكواكبي ورشيد رضا وسيد قطب ومالك بن نبي، ورغم ذلك لم تحقق هذه الجهود الدفع المطلوب، وذلك لإهمالها قضية الطفل بوصفها وسيلة أساسية لإحداث الإصلاح المطلوب، ويرجع هذا الإهمال إلى أن الأمة تنظر إلى الفصل في التعليم بين أبناء الخاصة وأبناء العامة فكانت هناك ثقافتان؛ ثقافة لأبناء الخاصة لها أهدافها ومحتواها ووسائلها وثقافة لأبناء العامة تختلف في أهدافها ووسائلها ومحتواها، ثم كان هناك تعليم ثالث يهدف إلى إعداد الموظفين، ولقد أدى هذا الوضع إلى سيادة ثقافة العجز والاستلاب لدى أبناء العامة وسيادة ثقافة زعامية فوقية مستبدة فاسدة مترفة لدى أبناء الخاصة عملت على تبديد ثروات الأمة وانتهاك حرماتها ومقدساتها، ويتمثل الخروج من هذا المأزق بالسعي إلى إحداث التغيرات المطلوبة في بناء الأطفال النفسي والوجداني، وهنا يمكن الاستفادة من قصة سيدنا موسى عند إصلاح بني إسرائيل، فعندما تشوهوا وجدانيًا ونفسيًا نتيجة للاستعباد من قبل الفراعنة وسادت فيهم السلبية والتنصل من المسئولية وإلقاء العبء على الآخر، توجه سيدنا موسى للبناء النفسي للقوم لإحداث الإصلاح على مستوى العقل والقلب والوجدان من خلال إعادة تربية القوم.

بالنسبة لموقع الفكر من مشكلات الأمة الكبرى، نجد أن أهم هذه المشكلات تتمثل في جريان العلاقات على عكس ما يجب أن تكون عليه مع التركيز على الأسباب الثانوية وإهمال الجوهرية، حيث سار المستشرقون والعلمانيون على نهج اتهام الإسلام بأنه السبب في تمزق الأمة مع تجاهلهم لكون الإسلام هو العقد الذي

لَمَّ فرط الأمة وجعلها ذات صبغة موحدة ولو على مستويات متباينة، ولكن الاستعمار وجه سياساته وتدابيره وكيده وعدوانه لمضاعفة أمراض الأمة، ومع هذا لم يستطع أن يفعل ذلك مع الصين والهند رغم تشابه ظروفهما مع ظروف العالم الإسلامي، مما يدل على أن الأمراض الداخلية للأمة الإسلامية هي السبب الجوهري لحالة التخلف التي تعيشها.

لقد أصبح العالم الإسلامي فريسة تقع بين تكتلات عالمية متنازعة بسبب تمزق العالم الإسلامي، فبالرغم من وجود اتفاقيات شراكة بين معظم هذه الدول إلا أنه لا يوجد لها تفعيل على أرض الواقع، وهذا الوضع المأسوي للعالم الإسلامي يخالف مبادئ العقل والمصلحة وتعاليم الإسلام التي تأمر بالوحدة والتكامل، ومن هنا لابد من إجراء دراسات لمعرفة الأسباب التي أدت إلى تشوهات الجانب الجمعي في شخصية المسلم من خلال النظر والتدقيق في فكر ذلك المجتمع وثقافته ومناهج تربيته، وبعد ذلك يمكننا الاستفادة من التوجهات الجمعية في القرآن والسنة والممارسات الإسلامية القائمة على العدل والتضامن حيث ظهر التبرع بكل المال ونصفه وبجزء كبير منه، ذلك لأن كل فرد من أبناء الأمة كان واثقًا تمامًا من أن الدولة ضامنة لسداد ديونه. لقد غاب هذا البعد الجمعي عن فكر الصفوة الفكرية، فأدى ذلك إلى آثار خطيرة منها انتشار الاستبداد والفساد والشح وتهدمت مؤسسات المجتمع وساده النزاع والصراع، وكان ذلك نتيجة لعودة روح القبلية وعصبيتها الجاهلية ونزعة مغالبتها الحيوانية، وصاحب ذلك تراجع قوة الدفع الروحي الإسلامي والاستسلام إلى تأصيل السلبية الاجتماعية، وهنا تبرز ضرورة بناء البعد الجمعي في الثقافة والتربية، بدءًا من بيان دور كتب الفقه الإسلامي في كونها دليل في تكوين عقلية المسلم وأساس بنائه النفسي؛ حيث أهملت البعد الجمعي العام من خطة توجيهه وعرضه حين جعلت شئون الذكر والمناسك

والشعائر هي الغاية والهدف، لذلك لابد أن يتم إصلاح كتب الفقه والثقافة والتربية الإسلامية حتى تصبح دليل فهم وفقه وثقافة وتربية شمولية صحيحة، ولكي تتم عملية التغيير، فإن المخرج يتمثل في إحداث التغيير في طبيعة البناء النفسي والوجداني وتشكيل العقلية العلمية الإبداعية الإيجابية البناءة المسلمة، وهذا يتم بالوسائل التربوية السليمة وخلال مرحلة الطفولة وهنا تبرز أهمية التمييز بين الخطاب التربوي الموجه للبالغين والخطاب الموجه للأطفال.

لقد أدى ضعف الدراسات الإنسانية في العصور المتأخرة لدى الأمة إلى خلط الأبعاد والمجالات المختلفة، ومن أمثلة هذا الخلط ما نجده من خلط في قواعد التعامل السياسية والاقتصادية داخل الأمة وتلك المتعلقة بالتعامل السياسي والاقتصادي خارج الأمة، ومن هنا تبرز عبقرية الخطاب الإسلامي في تعدده بتعدد المخاطبين وبتعدد أبعاد الوجود وبتعدد الحاجات، فهناك الخطاب العام وهناك الخطاب الكوني الأزلي وهناك الخطاب الزماني والمكاني والحركي وغيرها من أنواع الخطابات، ولقد كان لهذا الخلط آثار مدمرة نتجت عن سوء توظيف قدسية الخطاب منها خلق نفسية العبيد حيث ساد خطاب الإرهاب الفكري لغرض التبعية الفكرية وتكميم الأفواه وفرض الجمود، فلو أخذنا خطاب نظام العقوبات الإنسانية نموذجًا لوجدناه متعدد الأبعاد وإيجابيًا يهدف إلى مساعدة الإنسان المسلم على ممارسة حياته فردًا وجماعة بإيجابية وأمن وطمأنينة، أما سيطرة الترهيب على الخطاب الموجه للطفل والذي اتخذ العقاب وسيلة عامة أساسية للتربية فإن هذا يتجاهل كون الرسول صبورًا رحيمًا في معاملة الأطفال على أسس الاحترام وتلبية احتياجاتهم، فهناك دلالة واضحة في تعامله مع حفيده الحسين حين امتطاه في الصلاة على إدراكه للعديد من الأبعاد التربوية، وهنا يستهدف الخطاب تكوين الشجاعة والكرامة والثقة بالنفس، لكن ممارسات المسلمين عملت على أن يحل

خطاب الاستهانة والقسر والترهيب محل الخطاب النبوي.

بالنسبة للفصل الرابع «الحل الأساسي: بناء الطفولة» وذكر فيه أنه على الرغم من أن أزمة الأمة في أصلها كانت أزمة سياسية اجتماعية ثم تحولت إلى أزمة فكرية ثقافية حضارية ثم تحولت إلى أزمة نفسية وجدانية تربوية تتعمق وتتوارث، فإن الحل يتمثل في الأخذ بالتفكيك والتحليل العكسي لتحديد التحديات ثم مواجهتها، وأهم هذه التحديات هو مواجهة القدرة العلمية التكنولوجية للأجنبي الذي مكنته من قهر وإخضاع شعوب العالم الإسلامي، ثم طور الأجنبي وسائل العولمة لتهميش وتمزيق كيان الأمة، ولمواجهة هذا التحدي لابد من نشر ثقافة العلم والتقنية والتي يكون هدفها تنظيمي اجتماعي إبداعي علمي يستند إلى ثوابت هداية الحق. أما التحدي الثاني فيتمثل في الإشكال الثقافي المتمثل في المعارك الوهمية مثل حد الردة الذي لا يعتمد على الاقتناع ويعتمد على الجبر والقهر، وهناك إشكالية الجزئية والحرفية النصية وضعف الضبط المنهجي في علاقات الأولويات والمبادئ والمنطلقات بالتفاصيل والأحداث في ثقافة الأمة ودورها في تشويه العقلية العلمية، فأدى ذلك إلى تقسيم مفكري الأمة إلى مدرستين؛ مدرسة دينية حرفية تقليدية تقابلها وتعارضها مدرسة مدنية علمانية تقليدية حرفية مستغربة، وهناك تضارب بين المدرستين، حيث تعتمد المدرسة الدينية على الدعاء والتوكل والتسليم للوعظ من خلال النصوص المقدسة، وتعتمد المدرسة المدنية على تساؤلات مشوبة بالرفض للدين وحريصة على متابعة الأجنبي المستعمر.

لقد كان لاعتماد المدرسة العلمانية على مناهج التخصص الضيقة أثره في تساؤلاتها، ولهذا يجب الاستفادة من الوسائل والإمكانيات العلمية التي تعاظمت بشكل أعطى إمكانيات هائلة للبحث والنظر والتمحيص يجب الاستفادة منها في إعادة صياغة علوم النصوص ومناهجها ووسائلها، فمثلًا يمكن الاستفادة من

الإمكانيات الحديثة والمنهجية الشمولية في قضايا نقد المتن والسند في ضوء تفهم كليات ما ورد عن الرسول، ففي قضية الأحاديث التي تقول بوقوع السحر يجب أن نعتمد على القرآن الذي يجزم بأن الغيب لا يعلمه إلا الله، وهنا لابد من نقد المتن في ضوء مقاصد القرآن ومفاهيمه، وبالتالي يمكننا القول بأنه لا مجال للخرافة في عالم اليوم باسم الإسلام، فتكفي المعوذتين لوضع حد فاصل لكل الهواجس والوساوس ومكائد الدجالين التي قد تنتاب النفس، ولذلك يجب التمييز بين المعارف التي كانت سائدة قبل الرسالة الإسلامية وبعدها، وهنا تبرز ضرورة التصحيح المنهجي والتنقية الثقافية للكثير من النصوص، مع توجيه الاهتمام إلى عدم الجزم لما قد يتم التوصل إليه.

ويأتي بعد هذا الإشكال المنهجي الإشكال التربوي الذي هو نتيجة للإشكال الفكري ولهرمية الاستبداد وفكر الوصاية والتفرد، الذي جعل الطفل في أسفل سلم الأولويات، باعتباره ضئيل الحجم والقدر مهمل القيمة والكرامة، فهو كائن لا يفهم ولا يعي ولا يدرك، فيجب أن يُؤْمر ويُنهى ويُسَيَّر وفقًا لرغبات الأكبر سنًا والأعلى قدرًا، وعليه أن لا يسأل ولا يناقش، ولكن عليه أن يقوم بالحفظ والاستظهار والتقليد والمتابعة؛ وهذه هي مناهج التربية ووسائلها في مجتمع العبيد، وهنا لابد من إجراء دراسات تربوية في تاريخ الفكر الإسلامي لتحديد غياب علوم التربية وأبحاثها، فمثلًا يمكن أن تبين الدراسات التربوية للكتاتيب أثرها في واقع تعلم أبناء الأمة ولتبين إهمال الحكام لكل شأن من شئون العامة وما ينتج عن ذلك من تدني التعليم وتفشي الأمية.

ولكي تبدأ عملية الإصلاح لابد أن يكون الخطاب القرآني أساسًا لفكرنا ومنهجًا لحياتنا وأن يكون الخطاب النبوي أساس منطلقاتنا، حيث كان الحب والشجاعة والاقتناع أساس منطلقات الخطاب النبوي، وكان لهذا أثره في بناء

الكيان النفسي والوجداني للطفل. إن استعراض حياة النبي تبين أنه لم يستخدم العنف اللفظي ولا البدني، لأن استخدام هذه الوسائل دليل على العجز وقصور الأداء التربوي وتؤدي إلى تحطيم شخصية الطفل واحترامه لذاته ولعزة نفسه وثقته بها وكرامته، فالحب الذي هو منطلق المنهج النبوي التربوي يولد الثقة والطمأنينة والشجاعة ويولد خضوعًا إيجابيًا يحرص من خلاله الطفل على مراعاة المحبوب، وكذلك تمثل الحرية ذات الحدود والمنضبطة قوة لأنها لا تمثل تخريبًا أو إفسادًا، وهنا يبرز التعود وحس المسئولية والكرامة كجوهر للنظام والانضباط لمرحلة الطفولة، ولتحقيق ذلك لابد للمربي أن يكون ملمًا بسمات مراحل النمو في الطفولة ومنطلقات التعامل معها سواء ما يتعلق بالصفات أو القدرات العقلية والنفسية والوجدانية والجسمية، ولهذا لابد أن يتحلى المربي الناجح بأصول التربية الصحيحة وأن يكون العدل هو أساس تعامله مع الأطفال بحب وبكرامة واحترام وفاعلية وأن يدرك أن الصبر والتربية صنوان لا يفترقان مع بذل الجهد والحرص على رعاية الطفل وفق حاجاته.

أما الفصل الخامس فقد جاء تحت عنوان «الأسرة المسلمة منبع الوجدان» وذكر فيه أن الأسرة هي المحضن الأول والهام بالنسبة للطفل نفسيًا وماديًا، لذلك أولاها الإسلام وعلاقاتها أعظم الاهتمام، حيث قدم رؤية تمكِّن من بناء دعائمها على أسس سليمة، وتبرز أسرار الشريعة الإسلامية في بناء الأسرة من خلال تحديدها لوظائف أفرادها وتكامل أدوارهم على أساس فطري علمي نفسي لعلاقات أفرادها، حيث قوة الميل الجنسي لدى الرجل للمرأة يجعله ينقاد لها، وبالتالي لطفلها، ومن هنا فإن الشريعة نظمت علاقة الزواج والنسب على أساس من الخصوصية، حيث تختلف طبيعة عورة الرجل عن طبيعة عورة المرأة، لأن كل مظهرها يمثل فتنة للرجل، ومن هنا سمحت الشريعة للرجل بتعدد الزوجات، ولم

تسمح بذلك للمرأة، وذلك حفاظًا على الأنساب، والشريعة كذلك لا تلزم أحدًا على البقاء في هذه العلاقة مكرهًا، كما حددت الشريعة دور الفرد في كل من الأسرة والمجتمع، فدوره في الأسرة قائم على المودة والرحمة، بينما يقوم دوره في مؤسسات المجتمع على قدراته وطاقاته، لكن تغبش الرؤية قد أدى إلى الخلط بين هذه الأدوار، فأصبحت الأدوار في المجتمع توزع وفقًا لمكانة النسب، كما أدى استيراد التشريعات الغربية إلى نقل الأدوار التي تقوم بها المرأة هناك إلى مجتمعاتنا، دون مراعاة لاختلاف الخصوصيات والمقاصد، ونتج عن ذلك ألوان من التفكك والفساد والانحلال، ولكي نحقق مقاصد الشريعة الإسلامية يجب دراسة سوق العمل والإعداد له وتنظيمه وتسهيل الأولوية فيه على ضوء الحاجات والقدرات والأدوار التي يطيقها ويؤديها مختلف أفراد المجتمع وفئاته، فالمرأة يجب أن تمارس نوعًا من الأعمال لا يتعارض مع دورها كأم ويناسب العاطفة التي تتمتع بها مثل مهنة التدريس في الروضة والمرحلة الابتدائية، ويفضل أن تدخل سوق العمل الفعلي بعد سن الأربعين.

إن عملية استعادة بناء الطفل تكمن في فهم دور الأسرة في تربية الطفل المسلم وتكوين ضميره وصياغة وجدانه وتشكيل بنائه النفسي، فعملية الاستفادة هذه لا يمكن أن تقوم بها الأنظمة والمؤسسات القائمة، لأن أي تغيير صحيح تحدثه يؤثر على الامتيازات التي تتمتع بها هذه الأنظمة والمؤسسات، بالإضافة إلى كونها في بنية القوى العالمية الكبرى، وهذا أيضًا شأن مؤسسات نشر الثقافة، إلا أن ذلك لا يعني تجاهلها، وإنما يجب الاستفادة مما قد تسمح به من مساحة لتحقيق مشروع التربية الإسلامية والذي يعتمد في معظمه على الدافع الفطري للإنسان، حيث يمثل الدافع الفطري الأبوي مفتاح تشغيل التغيير الاجتماعي، ومن هنا وجب على المفكر والتربوي والمصلح المسلم أن يمد الآباء بالثقافة والأدبيات التربوية العلمية

الإسلامية السليمة لتحقيق قناعاتهم ولإعادة تشكيل بنائهم النفسي والوجداني على أسس إسلامية سليمة، ويمكن للمدارس والجامعات الإسلامية الخاصة القيام بوضع برامج لتحقيق هذا الغرض، وهنا لابد أن يبرز دور الأسرة في تحديد نوع التأثير الذي يمكن أن تمارسه المؤسسات وبقية قوى المجتمع على الطفل نفسيًا ووجدانيًا ومعرفيًا.

إن واقع التربية والتعليم يعكس المقاصد والتصورات الغربية مضافًا إليها أمراض عصور تخلفنا الثقافي مما أدى إلى عدم تقدير المجتمع لدور الطفل في الرقي به، وهذا انعكاس لانحطاط مكانة المعلم وعدم وعي المناهج ووسائلها لأهمية البناء النفسي والوجداني للطفل وعدم ملاءمتها للمراحل والتحديات التي يمر بها الطفل، ونظرًا لأهمية الأسرة فيجب أن تتوجه الأدبيات التربوية لمخاطبتها باعتبارها «سيناء»[1] هذا العصر الذي يوفر محضن الحرية للطفل، ولذلك يجب أن تركز الأدبيات التربوية على جعل الأسرة مصدرًا للمودة والرحمة فيسود الحنان والرعاية والحب والأمن لأنها أساسية في التوجيه الإيجابي للطفل، فالقدوة التي يوجهها الوالدان للطفل تحتل مكانة بارزة في تشكيله عندما تعتمد على التوجيه من خلال الإقناع، فالمعالجات التي يجب إنتاجها من أجل ترقية وتطوير شئون الأسرة والتربية والتعليم يجب أن تكون سننية إسلامية اجتماعية حضارية تتعامل مع جوهر المفاهيم.

ولما كان المعلم هو الذي يعهد إليه المجتمع القيام بالدور التكميلي للأسرة في تربية الطفل كان لثقافته والمناهج التربوية والوسائل المتاحة له أهمية كبرى في تنمية الطفل معرفيًا ووجدانيًا نفسيًا، ومن هنا وجب التنسيق بين جهوده وجهود الأسرة لتحقيق الإعداد المطلوب للطفل، ولما كان الوجدان والنفس لهما مدى لا يتعديانه، فيجب أن يكونا الأساس الذي ينبني عليه الجانب المعرفي وأسلوب تعليمه، ذلك

(١) نسبة إلى فترة التيه لليهود التي أخرجت أجيال استطاعت دخول الأرض المقدسة.

لأن الجانب المعرفي يتطور بتطور الفرد وتطور البشرية، وهنا يجب إدراك العلاقة بين الوجداني والمعرفي، فمثلًا يجب إعادة النظر في تحفيظ القرآن للأطفال بدءًا من الجزء الثلاثين لأنه يتضمن عددًا من قضايا العقيدة والغيب والقضايا الأخرى المجردة مما لا يتناسب مع الطفل، فهذا خطاب يناسب البالغين المسئولين، وهنا يجب على المربي على أساس من الهدي النبوي لخطاب الطفولة وعلى أساس الرؤية القرآنية وقيمها ومقاصدها أن يقدم للطفل الاختيارات القرآنية التي تناسب مراحله النفسية، بحيث يجب البدء بوضع خطط عمل لتحويل الفكر إلى فعل.

بالنسبة للفصل السادس فقد جاء تحت عنوان «خطة العمل» فقد تناول خطة العمل بالتفصيل فذكر الخطوة الأولى في هذه الخطة هي التوعية بطبيعة المشكلة وأبعادها الثقافية التاريخية، فتَسرَّب الفكر الصوري الميتافيزيقي الإغريقي غيَّب دور العقل السنني الصحيح في النظر والبحث والدرس النفسي الاجتماعي، هذا إلى جانب عنف الصراع بين الاستبداد السياسي والعلماء، حيث نتج عنه إهمال إعداد الطفل واقتصرت أدبيات بناء الأسرة على الشكليات الفقهية القانونية، وهنا يجب نشر هذا الوعي بين المفكرين والمثقفين، ولإتمام ذلك لابد من تنمية الفكر الإسلامي الاجتماعي الناقد المتعلق بأهمية دور الطفل في الحفاظ على قوة دفع الأمة، فمحاولات أبي حامد الغزالي وابن تيمية وتلميذه ابن حزم وعبده والكواكبي لم يكتب لها النجاح لأنها بقيت في دائرة المعرفي وفي دائرة خطاب البالغين، ولم تتجه بفكرها وبحثها نحو الطفولة وبنائها وجدانيًا ونفسيًا.

ويتطلب هذا الإصلاح أيضًا إصلاح الثقافة وتنقيتها، هذا الإصلاح يجب أن ينبني على مقاصد المنظومة الإسلامية ومفاهيمها وقيمها لتخليص الثقافة من التشوهات التي قضت على الروح العلمية السننية وعلى البعد العام والجماعي، ومكنت سلبيات العقلية الفردية وعقلية الخرافة والشعوذة، وبعد إحداث هذا

التغيير المعرفي لابد من مراعاة الجانب النفسي والوجداني لكي يتحول العلم إلى عمل وبذل وتضحية وجهد ومثابرة، وهنا يأتي دور توفير الأدبيات التي تقدم المفاهيم الإسلامية والاجتماعية التربوية للآباء، حيث تمثل القصة الأدبية الوسيلة الأمثل لتحقيق ذلك، وفي هذا الإطار يأتي دور المدرسة ومناهجها لكونها عوامل مكملة لدور الأسرة في التنشئة والتربية وفي الإعداد والتمكين، وهذا لابد أن يسبق بإصلاح المنهجيات العلمية التي تدرس في مؤسسات التعليم العالي وتوحيد مصادر المعرفة فيها وتكاملها إسلاميًا وسننيًا.

ومن المحاولات التي طرحت في هذا الإطار خطة إسلامية المعرفة وتأصيل الفكر الإسلامي، حيث التقى مجموعة من الشباب المسلم في جامعات الولايات المتحدة في ستينات القرن العشرين فأنشأوا مؤسسات طلابية لحماية هويتهم الدينية والثقافية والاجتماعية، فكوَّنوا اتحاد الطلبة المسلمين في كندا والولايات المتحدة عام١٩٦٣م، وانبثق عن هذا الاتحاد جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين التي تأسست عام١٩٧٢م، ثم تكونت الجمعية الإسلامية لشمال أمريكا عام ١٩٨٠م، ومع مطلع القرن الخامس عشر الهجري تأسس المعهد العالمي للفكر الإسلامي عام١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ليعمل على خدمة الفكر الإسلامي وإعادة بنائه المنهجي المعرفي وتنقية الثقافة الإسلامية، وقد أصدر المعهد ما يزيد على ثلاثمائة وخمسين كتابًا في مختلف ميادين العلوم الدينية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية، ولتوفير أدبيات تربوية تهتم بالطفولة فقد أنشأ المعهد مؤسسة تربوية متخصصة هي «مؤسسة تنمية الطفولة» لخدمة قضايا الطفل المسلم التربوية، ولم يكتف المعهد بذلك ولكنه تبنى تجربة إسلامية المعرفة في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا (١٩٨٨-١٩٩٩) لتكون تجربة علمية عملية رائدة برهنت على نجاح التجربة وعلى إمكانيات عطائها الفكري الإصلاحي الإسلامي.

إن تكامل جهود مؤسسات المعهد قد تؤدي إلى وضع خطة عمل لإنشاء مؤسسة تعليمية عالمية تقوم على أساسها سلسلة من المدارس الإسلامية العالمية تكون نواة لفلسفتها ومناهجها وأساليبها ونموذجًا لتفعيل دور الأسرة والمدرسة، ولقد بدأ المعهد هذه الخطة حيث ألحقت مدرسة بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ولبلورة الحالة التي عليها الأمة وإمكانية تجاوزها لابد من تتبع الجذور التي أدت إلى الانفصام بين السياسيين والمفكرين فأضعف الفريقين وأدى إلى استبداد سياسي وإرهاب ديني وهما معًا أديا إلى تشوه الرؤية العالمية والكونية مما نتج عنه خلق أمة سلبية، وللخروج من حالة السلبية لابد من الإصلاح المنهجي والذي يؤدي إلى إصلاح ثقافي والذي بدوره يؤدي إلى إصلاح تربوي يربي أمة تتحلى بالقيم الإيجابية وناشئة قادرة على حمل المسؤولية.

إسهامات الكتاب في فكر مدرسة إسلامية:

تناولت المقدمة أسباب فشل المشروع الحضاري الإسلامي وأرجعتها إلى تغيُّب الطفل من هذا المشروع، ومن هنا فإن هذا الكتاب هو محاولة لفهم غياب الجانب النفسي الوجداني في الخطاب التربوي الإسلامي الموجه للطفل، وقد نجح المؤلف في تركيز الانتباه على الجانب النفسي الوجداني في مرحلة الطفولة، لأن الجانب النفسي الوجداني يتشكل في الإنسان قبل الجانب العقلي والحركي، وأنه من الصعوبة تغيير وجدان الإنسان في المراحل التالية لمرحلة الطفولة؛ حتى لو تم تكوين هذا الجانب بشكل خاطئ.

أما الفصل الأول، فقد حدد أثر غياب الاهتمام بالجانب النفسي الوجداني في تكوين الإرادة السلبية، وبالتالي حدد المؤلف الأفكار التي من شأنها تربية الإرادة الإيجابية لدى الفرد المسلم ومنهجية تحقيق ذلك، وفي هذا المضمار، ذكر نقاط الاتفاق بين المنهج العلمي الغربي والمنهج العلمي الإسلامي، ثم بين أن المنهج

الإسلامي يتميز ببحث السنن الإلهية في الكون والكائنات وله غايات كلية وأخلاقية، وهذا سبب أزمة المنهج العلماني الذي يتم تطبيقه في المؤسسات الأكاديمية في العالم الإسلامي، فالمنهج العلماني يعتمد على تفتيت الظاهرة الإنسانية والتعامل مع جزئياتها كوحدات مستقلة لا تؤثر ولا تتأثر ببعضها البعض، أما شمولية المنهجية الإسلامية فهي تمكن من تخطي هذه الأزمة، ويدلل المؤلف على صدق فكرته من خلال الاستشهاد بالتجربة التاريخية للأمة الإسلامية التي لم تعمل على تنقية معتقدات وفلسفات أبناء الأمم الأخرى الذين دخلوا في الإسلام، وأرجع الخلل الذي تعيشه الأمة الإسلامية الآن إلى هيمنة المادية الغربية وفرض مبادئها التي حلت محل الانسجام بين الضمير والوجدان الإسلامي مع الفكر والغايات والنظام الإسلامي، وهنا يطرح المؤلف قضايا كلية من شأنها إحداث التغيير المطلوب، حيث لمس المؤلف بيت الداء وشخَّص له الدواء، داعيًا الباحثين إلى مواصلة الدراسات العلمية المعتمدة على المنهج الإسلامي لوضع تفاصيل لمراحل النمو النفسي الوجداني للطفل المسلم ومعرفة الآليات التي تؤدي إلى تكوين الإرادة الإيجابية الجمعية لتعزيزها وتحديد الآليات التي تؤدي إلى تكوين الإرادة السلبية بهدف إضعافها والعمل على القضاء عليها، هذا الطرح العميق للفكرة والمنهجية يضع كل الباحثين الراغبين في العمل في تيار مدرسة إسلامية المعرفة أمام تحد جوهري يتمثل في الكشف عن السنن الإلهية الخاصة بالبعد النفسي الوجداني لمرحلة الطفولة في الكتاب والسنة.

ولم يكتف المؤلف عند هذا الطرح، بل قدم أيضًا مفردات الدفع الإيماني لهم وعلاقتها بتراكمات العمران والبناء والصنائع المادية، وصاغ هذه العلاقة في صورة معادلة، وهو في هذه المعالجة يقدم نموذجًا للمعالجات التربوية لموضوعات غاية في الأهمية، غير متأثر بالتصنيف الغربي للعلوم والمعارف، ومتخطيًا للمنهجية الجزئية

التي تضع حدودًا مصطنعة بين التخصصات المتداخلة، والتي لابد من إزالتها إذا كان هناك مقصد حقيقي لمعالجة الأزمات التي نواجهها الأمة، فمثلًا؛ في كليات التربية في الجامعات المصرية، لا يمكن لدارس أن يتتبع التطور التاريخي الذي مرت به الأمة حتى تكونت لديها إرادة سلبية جماعية، بحجة أن دراسة الإرادة تقع ضمن تخصص علم النفس، بينما يقع التتبع التاريخي ضمن تخصص تاريخ التربية، ولا يمكن لباحث أن يجمع بين التخصصين، متعللين لهذا بأن ذلك سيؤدي إلى التوصل إلى معارف ليست علمية منضبطة، ويغيبون عن أنفسهم البديل الآخر المتمثل في أن يكون الباحث متعمقًا في دراسات الظاهرة النفسية ومتعمقًا في الدراسات التاريخية للأمة ومستوعبًا للمصادر الأساسية للثقافة الإسلامية المتمثلة في القرآن والسنة، وهم في هذا يلجأون للاختيار الأسهل، ويصبح البحث عملية آلية روتينية وتتحول الدراسات إلى عبادة للمنهج، ويغفلون في الوقت ذاته أن المنهج وسيلة وليس غاية.

انتقل المؤلف للفصل الثاني لعرض وصف تفصيلي لتشخيص الداء، فأرجع أسباب قصور حركات الإصلاح عن تحقيق أهدافها إلى التشوهات والانحرافات التي حدثت في فكر الأمة وثقافتها، وأهمها تشوه الرؤية الكلية والتي نتج عنها أن استسلمت الأمة للسلبية والجمود والتقليد والمحاكاة، ثم ذكر التشوه المنهجي والذي حول الفكر الإسلامي إلى فكر نظري يغيب عنه بعدي الزمان والمكان وسنن الطبائع في الكائنات، فتحولت المعرفة إلى معرفة نصية، وبعد ذلك ذكر تشوه المفاهيم وأولها مفهوم العبودية ومفهوم الإنسان السوي، ثم ذكر تشوه الخطاب والذي تحول ليصبح خطاب إرهاب وقهر وقمع، بعد ذلك ذكر تشوه سيادة عقلية الشعوذة والخرافة لدى عامة الأمة، والتي حلت محل العقلية السننية، وانتقل بعد ذلك للحديث عن تشوه العرقية الذي كان من شأنه أن عادت الجاهلية إلى الحياة الإسلامية، بعد أن تم القضاء عليها.

هذا التقديم لهذه التشوهات يعكس خبرة علمية إسلامية عميقة، استطاعت أن تضع يد أبناء الأمة على أهم أسباب فشل المشروعات الإصلاحية للأمة؛ ولاسيما الحديثة منها؛ وبالتالي فإن هذا التقديم هو دعوة للمفكرين الإسلاميين إلى الوقوف على التشوهات التفصيلية التي تندرج تحت هذه التشوهات الكلية، وبالتالي يمكن وضع حلول مرحلية للقضاء على كل تشوه من هذه التشوهات، والعودة بالأمة إلى ما كانت عليه في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين، كما أن تنوع هذه التشوهات بين منهجية ومفاهيمية وعقدية وممارسات يجعل من الضروري الوقوف على المنهجية الإسلامية الشاملة التي هي الوحيدة القادرة على التخلص التدريجي من هذه التشوهات من خلال تتبع جذور كل تشوه، وتحديد علاقته بالتشوهات الأخرى.

وفي تشخيصه للداء، انتقل المؤلف إلى لبيان أثر الانحرافات الفكرية على حياة الأمة وحدد أسباب هذه الانحرافات، فأرجعها إلى الصراع السياسي بين الصفوات والقائم على أسس عرقية، والذي دفع الخطاب السياسي من كونه خطابًا توجيهيًا نحو مقاصد الإسلام، إلى كونه خطابًا تستغله الصفوة المسيطرة لتبرير ممارساتها، ورغم التعارض بين ممارسات الصفوات، إلا أن كل فريق كان يوظف الخطاب الديني بصورة انتقائية للبرهنة على أنه هو الأحق بالسيطرة على مقدرات الأمة، وبالتالي فإن هذه الانحرافات الفكرية قد ازداد بعدها عن غايات ومقاصد المصادر الإسلامية، وفي هذا دعوة من المؤلف لشباب الباحثين لتتبع هذه الانحرافات وتحديد مدى بعدها عن غايات ومقاصد المصادر الإسلامية، وبيان نقاط التباعد، حتى يمكن تحديد خطوات إعادة الخطاب الإسلامي إلى غايات ومقاصد المصادر الإسلامية، وهذا العمل يتطلب نوعيات مؤهلة تأهيلًا خاصًا يجمع بين الأصالة والمعاصرة للقيام بهذه المهمة.

بالنسبة للفصل الثالث، فقد ذكر فيه فكرة في غاية الأهمية، والتي تتخطى

مرحلة تشخيص الداء إلى مرحلة وصف الدواء، فاستعرض بإيجاز معظم حركات الإصلاح التي شهدها العالم الإسلامي في فترات التاريخ المختلفة، وبين أن جميعها تشترك في إهمال بعد الطفولة، وأرجع هذا الإهمال إلى أشكال الممارسات التربوية التي سادت في تربية الطفل، وهذه الممارسات قد أهملت البعد النفسي الوجداني، هذا الطرح يتميز بالعلمية المعتمدة على الاستقاء النقدي لسير التاريخ الإسلامي، ويبين مدى تعمق المؤلف في تشخيص الحالة؛ حيث لم يلتفت لبعد الطفولة غيره، سوى الممارسات النبوية وممارسات الأصحاب في تربية أطفالهم، ومن هنا وجب على البحث في مجال إعداد الطفل أن يتم إعادة صياغة توجهاته بشكل يبدأ بتحديد جوانب الخلل في الممارسات الحالية في ضوء مبادئ الوحي، ثم استمداد أساليب من شأنها تحقيق التوازن بين الجوانب المختلفة في شخصية الطفل، ولا يمكن أن يتم هذا إلا في ضوء مدخل تكامل العلوم التربوية وتداخلها بشكل يقضي على الممارسات العلمية المتخصصة التي تنظر للظاهرة التربوية نظرة تجزيئية، حتى أصبحت الدراسات مخالفة للواقع تمامًا ولا تؤدي المرجو منها، سواء في العالم الإسلامي أو في بقية أنحاء العالم، وبالتالي يكون هذا أبلغ رد علمي عملي على المنهجية العلمانية السائدة، وإعادة الاعتبار للنظرية الإسلامية التربوية لتحتل مكانها اللائق بها في العالم المعاصر.

كما دعا المؤلف إلى إجراء دراسات من شأنها تفعيل الجانب الجمعي للأمة، كما كان في عصر النبوة والخلفاء الراشدين، وأن تنطلق هذه الدراسات من الواقع فتشخصه، ثم تحدد مواطن المرض الجمعي في هذا الواقع وأسباب هذه الأمراض، ثم تحدد آليات العلاج لهذه الأمراض، وأخيرًا تنزل هذه العلاجات على الواقع لتقيس مدى نجاحها أو فشلها، وهنا تبرز أهمية المنهج النقدي المعتمد على التغذية الراجعة والتي يمكنها أن تصحح المسار كلما انحرف، كل ذلك يتم في ضوء مراعاة

تنوع الخطاب الإسلامي ومراعاته لظروف الفئة المستهدفة، فالخطاب الموجه للأطفال لابد أن يختلف عن هذا الموجه للبالغين، والخطاب الموجه للداخل لابد أن يختلف عن هذا الموجه للخارج، والخطاب المستخدم في مرحلة ضعف الأمة لابد أن يختلف عن هذا المستخدم في مرحلة قوتها، وفي هذا يوجه المؤلف نظر الباحثين إلى ضرورة عمل دراسات تحدد هذا التنوع والتباين في الخطاب الإسلامي وتحدد أنسبها لكل ظرف ولكل مكان.

بالنسبة للفصل الرابع، فإن المؤلف يطرح منهجية منضبطة للحل الأساسي المتمثل في بناء الطفولة، وهي منهجية التحليل العكسي، حيث ذكر كل تحد يواجه الأمة وحدد الحل لهذا التحدي من خلال نظرة شمولية متعاليةbird viewتعكس معالجة كاملة لكل تحدي، وتتضمن ترتيب أولويات لهذه التحديات، فبدأ بالإشكال التكنولوجي ثم يليه الإشكال الثقافي ثم إشكالية الجزئية والحرفية النصية وإشكال غياب المنهج المنضبط والإشكال التربوي، هذا الترتيب للأولويات يستفيد من الإمكانيات الهائلة التي أحدثتها الثورة العلمية الغربية، ويعمل على توظيفها للاستفادة منها في تحقيق الدفعة الحضارية المطلوبة، حيث يمكن إدخال البعد الروحي الإسلامي على هذه الإمكانيات، وبالتالي تحقيق التميز المتمثل في تحقيق التوازن بين الأبعاد المختلفة للحياة الإنسانية على مستوياتها المتنوعة الفردية والجماعية، وهنا يبرز دور الخطاب القرآني كأساس لفكرنا ومنهج حياتنا وأثره في الخطاب النبوي، ولاسيما تلك المتعلقة بالطفل، وهذا الطرح من جانب المؤلف يتطلب فرق عمل بحثية تسير وفق خطوط عامة متسلسلة، ولا تتم كلها في آن واحد، وهنا يمكن أن يبدأ مشروع متتالي المراحل، لا يتم الانتقال للمرحلة التالية إلا بعد الانتهاء من المرحلة التي تسبقه، وبالتالي الاستفادة منها والبناء عليها، وأن لا تكون تكاليف هذا المشروع لجميع أعضاء الفريق البحثي في وقت واحد، وإنما

تسير التكاليف وفقا لترتيب تنفيذ المراحل، وبهذا الطرح يكون المؤلف قد أنجز ما قد كلف به نفسه في بناء تراكم معرفي في مدرسة إسلامية المعرفة.

انتقل المؤلف في الفصل الخامس انتقالًا منطقيًا للحديث عن أهم مؤسسة في تربية الطفل، وهي مؤسسة الأسرة، وبين كيف أن الإسلام قد اهتم بمراحل تكونها وتحديد أدوار الأفراد داخلها، مدركًا لدورها الجوهري في بناء الأمة، ووجه الانتباه إلى فكرة استيراد أدوار الأفراد من الثقافة الغربية وأثر ذلك على عملية تربية الطفل وفكرة كون الأبوة تمثل مفتاح التشغيل في التغيير الاجتماعي، ويضع المؤلف بعد طرح هذه الأفكار آليات للباحثين في مجال التربية لتوجيه أبحاثهم نحو دراسة مؤسسة الأسرة، انطلاقًا من الحاضر وبيان التيارات الفكرية الموجهة لها وبيان مدى بعدها أو قربها من التصور الإسلامي للأسرة، وكذلك على هذه الأبحاث العمل على تفعيل دور المعلم في المؤسسات التربوية القائمة لكي يتمتع بصفات الأبوة وبالتالي تحقق هذه المؤسسات توافقًا مع مؤسسة الأسرة ولا يحدث تضارب بينهما، كما اقترح المؤلف إجراء دراسات حول منهج تحفيظ القرآن للأطفال بحيث يراعي هذا المنهج مراحل النمو النفسي والمعرفي للطفل، وهنا يدرك المؤلف ما للخطاب القرآني من أثر جوهري وعميق في تكوين نفسية ووجدان الطفل بصورة يصعب تعديلها في المراحل اللاحقة من حياته.

ختم المؤلف دراسته بالفصل السادس، حيث قدم فيه خطة العمل، والتي تبدأ بالتوعية بطبيعة المشكلة وأبعادها الثقافية والتاريخية، ويلي ذلك تنمية الفكر الإسلامي الاجتماعي الناقد، ويلي هذا إصلاح الثقافة وتنقيتها، ثم عرض بعد ذلك المحاولات الحديثة التي طرحت في هذا الإطار، هذه الخطة هي خلاصة الأفكار التي عرضها المؤلف في كتابه، وهي نتيجة طبيعية لما قدمه من منهجية وأفكار يمكن أن تساهم في حل أكبر إشكالية تواجه العالم الإسلامي.

الخاتمة:

إذا كان كتاب «إسلامية المعرفة (المبادئ العامة- خطة العمل- الإنجازات) يمثل دستور مدرسة إسلامية المعرفة، فإن هذا الكتاب بحق يعتبر أحد القوانين التي تقدم تفصيلات لهذا الدستور، كما يضم أيضا اللوائح التنفيذية لهذه القوانين، فالمؤلف قد وضع يده على المخرج لأزمة الأمة، وما على الأمة إلا التقاط هذه الأفكار والعمل على تقديم تفصيلات إجرائية قابلة للتطبيق على المستوى المصغر، وبالتالي يمكن نقل ما قدمه هذا الكتاب إلى المجالات الإسلامية الأخرى، والتي تقوم كلها على أساس التربية الإسلامية الصحيحة.

*****

obeikan.com